مجنون زاهد

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

«مهداة إلى صاحب القلب الحساس»

ليس أحب إلى النفس من الخلوة عند ما يفيض بالانسان حزنه أو أساه ...

لما لم يكن فى وسع « هلا » أن تشارك أختها فرحة عيد ميلادها لتجهم نفسها وتلبد غيوم ذهنها ..

إنها تحب أختها وتميل إلى الطرب أيضاً وتفرح لمسرة القريب والغريب ، ولكن ذاك اليوم يذكرها بمأساة عاطفية رسمت حروفها النارية فى سويداء قلبها البكر ...

ميلاد أختها ، وموت قلبها ، يجتمعان فى يوم واحد . فماذا عساها أن تفعل ؟ . . .

أتتكلف البشر وليس فى مقدورها أن تحبس دموعها فى ذاك اليوم على الأخص ...

حاولت جهدها أن تبدد السكآبة بتكلف البشر فلم تستطع ، وضاقت بهواجسها حتى خيل إليها أن مجرد النظر إليها يدر الدموع من العينين ...

إذن لماذا تكون آفة ميلاد أختها السعيد وهى تريد أن تكون بهجته وباعث مسرته ..؟

كل شىء حواليها يحمل طابع الأسى فى ذلك اليوم ، حتى الموسيقى تبلغ مسمعيها كترتيلة الجناز

أوه . . . لشد ما يفزعها رأى ظواهر المرح والانشراح والطرب فى البيت ! ولشد ما تفزعها رؤية أختها وهى تتجمل للقاء صديقاتها وصويحباتها ! أى ذكرى مريرة يحملها ذاك اليوم الحزين ؟

* * *

— يا أختاه ! لا بد أن أجل رأسك بتاج من الفل الطبيعى أوصيت بعمله ، سأخرج لأحضره وأعود به توآ ...

هكذا قالت لأختها وهى صادقة كل الصدق .. خرجت على أمل أن تعود ...

واليوم الأحد ومحل الورود مغلق . لقد نسيت ذلك ولم تذكره إلا عند ما بلغت مكانه ...

وداهمتها خواطره المحزنة وصعب عليها أن تعود إلى أختها بغير الفل ...

ودون عمد تابعت الخطى حائرة لا تدرى ماذا هى فاعلة ... وسارت فى الطريق لا تلوى على شىء حتى أحست بنسيم معطر يجتاز جنبات نفسها فيحبوها بالطمأنينة ، وتنبهت فاذا بها فى طريق خال من السكان والمارة على جانبيه زرع الشتاء الأخضر فى غير زى الربيع الناضر

وطاب لها المسير فلم ترتد ، وظلت تمشى حتى استرعى نظرها شجرة كثيفة يتدلى من أغصانها ثمر الحناء ، فأسرعت الخطو لتجمع منه ما تستعيض به عن الفل ...

وما كادت تقترب من الشجرة حتى لمحت رجلاً لم تشك فى أنه عابر طريق ؛ افترش الأرض واتخذ جذع الشجرة خدناً اعتمد عليه برأسه فى شبه استسلام الوسنان ؛ تصور ثيابه الرثة ما يعانيه من بؤس وشقاء ، ويحكى وجهه الشاحب أقصوصة

الآلام والحرمان ويشيع من عينيه بريق الذهول ..

أى منظر مروع ! منظر الرجل القوى الذى يعجز عن التمتع بالحياة كما يتمتع بها كل رجل ، لا عن مرض أو عاهة ، بل عن يأس وقنوط

مرض الجسم يداوى ... أما مرض النفس فلا دواء له، يظل بصاحبه حتى يميته ...

ولا شك أن هذا الرجل مصاب بمرض نفسه إذ لا تبدو عليه ظواهر علل البدن

تقدمت منه الفتاة حتى واجهته بدافع الشفقة ... مدت إليه يدها ببضعة دريهمات ظناً منها أن من يقنع بالجلوس فى هذا الخلاء المقفر لا شك أنه يعاف التوسل إلى الناس ويستنكر الاستجداء

ولم يكد يلمح حركة يدها والنقود حتى ضحك بصوت جنونى هازاً رأسه فى إباء ناظراً إليها فى غيظ كأن بينها وبينه حقداً قديماً أو كأنها هتكت كرامته وجرحت رجولته

وكانت نظرته كافية لرد الفتاة إلى الصمت والخجل على أنها وقفت قبالته حائرة مذهولة لا تدرى ماذا تقول وماذا تفعل ، وقد تنبه شعورها الرحيم فاجترأت وتقدمت منه قائلة : سيدى ، ما ضرك لو سمحت لى بمساعدتك ؟ أراك فى حاجة إلى المساعدة

فرفع الرجل رأسه فى كبرياء ونظر إليها محملقاً ثم قال بلهجة جافة : حتى هنا الشيطان يتبعنى ... ؟ ويحى ... ثم أنّ كالوجيع وشد شعر رأسه المشعث بيد مرتعشة محمومة، وبيده الأخرى أشار إليها قائلاً:

— إذهبى أيتها الشيطانة !

فربعت الفتاة ، ولكنها غالبت الخوف قائلة :

— هون عليك يا سيدى

ولكنه لم يكد يستمع إليها حتى انتصب وراح يعدو كالمعتوه مردداً : ظننت هذا الخلاء لا يأويه شياطين الانس !

وظلت هى فى موقفها تتأمله وهو يجرى كالمجنون يتلفت خلفه كالمذعور ، حائرة بين ما تريد أن تفعله من أجله ، وبين ما تخافه منه :

— أى شيطان يعنى يا ترى ؟ ... أتراها فتاة حياته ... ؟

ثم هرولت خلفه تناديه : يا سيدى ، يا سيدى

لم تكن هيئته تحمل على ذاك النداء المحترم ، ولكن هيبة الرجل ووقاره أكسباه سمة أجل من جمال الزى وروعة الهندام

ووقف فعلته هدأ ، ولما بلغته اقترب منها باسماً بسمة عريضة ، ثم رفع يده على غير ارتقاب ولطمها على خدها، وباليد الأخرى جذبها من شعرها فى قسوة جنونية وطوح بها بعيداً فارتمت على الأرض كالطائر المذبوح تئن بصوت منهدج ثم انقطعت أنفاسها . إنما لم يطل بها الاغماء حيث مال عليها يفبهها ، أو لعله شاء أن يتأكد إن كانت حية أو ميتة ...

ولما تنبهت نظرت إليه بعينين دامعتين وغمغمت:

— ماذا جنيت ... ؟

وكأن صوتها سهم صوب إلى صدره فقبض عليها بكلتا يديه فى قسوة وهو يتمتم : أما زلت حية ؟

وأزعجها الشرر المتطاير من عينيه الغاضبتين فقالت بصوت رقيق :

— ولماذا تريد موتى ؟ ما ذنبى ؟

— فقال بصوت مرتعش ثائر يفيض بلهب قلبه : شيطانة ...

فتكلمت بسمة وهى تقول : هدئ روعك وسامحك الله ...

كانت لهجتها لطيفة مليئة بالحنان ونظراتها كافية لبعث الطمأنينة فى نفسه، لكنه أطرق برأسه فى صمت الذاهل

فتقدمت إليه فى عناء لأن الصدمة آلمتها وصح عزمها على أن تساير وتلاطفه حتى يطمئن إليها ويقص عليها حكايته ...

قالت :

— يا سيدى ، إن كنت فى حاجة إلى ابنة فها أنا ذى ، وإن كنت فى حاجة إلى أخت فلك منى هذه الأخت ... خذ منى ما ينقصك من حنان ورعاية وحسبك .

قالت ذلك بلهجة موزونة حارة انسكبت من معين صاف... كل كلمة فيها من قوة الصدق ما يزرى بكل جبار عتيد

ونظرت إليه وشعاع نظراتها يصور أجل ما يتمناه الرجل من حب وحنين !

ولكنه غض الطرف مليا وهو يعض شفتيه كأنه يعانى ألماً ممضاً فى نفسه، ثم وقف وانقض عليها كما يفعل الأسد المصور بفريسته وشد شعرها وهو يلفه على يده ناظراً إليها فى ثورة وجنون، ثم جذبها فى عنف وصدم رأسها بجذع الشجرة فسال الدم منه. ولم يكد يلمح الدم يسيل حتى ضحك مقهقهاً فى جنون، ثم أقبل على الدم بفمه يعب منه كأنه أشهى غذاء يرتجيه وهى من هول الصدمة ساكتة سكتة الأموات وقد ارتسم على شفتيها اصفرار الموت وأسبلت جفونها فى استسلام الفناء

ثم تركها وارتمى على الأرض يبكى كالأطفال، فانتبهت ومالت عليه حانية متناسية ألمها وما ألم بها قائلة بصوت خفيض متقطع : إن كان قتلى يريحك ويعيد إليك صفاء نفسك وهدوء بالك فأقدم عليه غير هياب ، فليست حياتى ذات قيمة فى ناظرى

وسحبت يده فى لطف وساعدته حتى اعتدل فى جلسته ...

فى هذه اللحظة أحست الفتاة أنها خلقت من أجل ذلك الرجل فنسيت الوجود وعادت تقول فى شبه همس :

قلبى يحدثنى أنك بليت بغدر امرأة أو علّ الموت اختطفها منك

فالتفت إليها فى هدوء واستمع إليها فى لهفة، ولما صمتت قال : أنا لا أنقم على المرأة غدرها . . . لأن الرجل هو الذى يبث فى صدرها بذور الشك بسوء تصرفاته أحياناً ...

إنما أنقم على الحياة لأنها تقضى على الحب بالموت فى قلب بينا نحييه فى القلب الآخر ... كأنه يخرج من هنا ليدخل هناك ...

ثم ضحك بغير صوت مردداً : أنقذى نفسك وعجلى بالذهاب . . . فانى أشم رائحة أنفاسها منك، ولو طال مكثك بجانبى فلا بد من قتلك ... دون عمد ... أنا الآن هادئ يافتاة وأعتذر إليك مما بدر منى ، فسامحينى واتركينى

كان يقول ذلك وهو يجاهد فى نفسه مصابين: مصاب الماضى الأليم ومصاب الحاضر الذى يغريه على التعلق به وليس فى مقدوره أن يجاوبه بالمزاء

وكأن كلماته خلاصة ما تشتهيه المرأة من حب صبها بمهارة فى قلبها فأكسبته حرارة ولهفة، فقالت: لن أتحدث إليك بلسانى يا سيدي ، إنما أرجوك أن تنظر إلى عينى ... أنظر طويلا واقرأ دخيلة صدرى ولا شك أنك ستفهم ما أعنيه

فاحمر وجهه وارتعشت شفتاه وحوّل وجهه بعيداً ثم عاد ونظر إلى وجهها متعمداً ألا ينظر فى عينيها وهو يقول : آه من العينين . . . بهما سعدت وبهما شقيت ...

فقاطعته : ولم لا تكون شقيت بهما وبهما تسعد؟

فهز رأسه مرتاباً وتنهد ثم أطرق ، ففهمت أن

فتاته ذات تأثير ساحر بعينيها، فترفقت به وقالت ..

يخيل إليّ أنك لجأت إلى هذا المكان النائى تحت تأثير أمر جلل. ألا تفتح لى صدرك علّ ذلك يرفه عنك؟ فقال : وما الفائدة .. انتهى كل شيء . انتهى كل شيء ...

فقاطعته : ولكنك رجل

قال : وهل تحارب المرأة إلا الرجولة ؟

قالت : تعصف بالضعيف وتستسلم للقوي

قال : وهى جاهلة لا تفرق بين الضعف والقوة

قالت : لأن الرياء والكذب يشوهان حقائق الوجود ...

وهنا لازمه الوجوم ولم يتكلم ولمحت جسمه يهتز كأن قشعريرة الحمى ملكته فعطفت عليه وهمست فى لطف : أظنك تشعر ببرد شديد ... وخلعت معطفها ثم ألقته على كتفيه فلم يمانع ، ونظر إليها فى هدوء وتمتم : من أنت يا فتاة ؟ قالت وهى تمر على شعره المشعث بيدها الناعمة فى حنان : بعثنى الله إليك لأسعدك . فلم يتكلم ، وتساقطت مدامعه كالندى الصافى فأكسبت خده الشاحب حمرة الشفق المتوهج فابتسمت قائلة : ألا تشعر بالحياة تسرى فى شرايينك؟ ألا تحس بخفقة القلب الحنيء يحرك كيانك ؟

فمد يده في بطء كأنه يتهيب لمسها، لكنه يريد أن يتحقق من أنه يخاطب إنساناً ثم قال مغمغماً: أيمكن أن تكونى امرأة حقاً ؟

أيمكن أن يكون بين شياطين النساء امرأة واحدة تحمل قلب ملاك ؟

أيمكن أن يكون ذاك الصوت الموسيقى لحن قلب صادق ؟

ثم صرخ ملتاعاً : رباه ... لم تسعدنا بالحب وتشقينا به؟ ثم أشاح بوجهه مدمدماً : لا، لا يمكن أبداً ... أنا حالم لا محالة ... ثم عاوده الضحك الجنونى ووضع رأسه بين ركبتيه ليخفى مدامعه ويخرس تنهداته

فرفعت رأسه بيديها محاولة أن تجذب نظره بعينيها قائلة : ليتنى أعرف أين فتاتك لأسعى إليها.

فصرخ فى وجهها : كفى عن الهذيان، لقد ماتت ..

فشهقت قائلة : رحمها الله .. ولماذا تقتل نفسك مادامت ذهبت عنك على الرغم منها، إذن أنا أشد منك قوة وأكثر إرادة ... فى اليوم الذى قيدت نفسى بالرجل الذى ظننت أنه مثلى الأعلى تبين لى أنه يلهو بغيرى، ولقد نبذته نبذ النواة واستطعت أن أتناساه.

ثم تكلفت ضحكة وأعقبت : خل عنك الحياة بين يأس ورجاء.. فاجعل ضوء الرجاء قبلة ناظريك دائماً.

فصمت مفكراً فيما قالته يحال مرماه ومغزاه

ولقد استطاعت الفتاة بجاذبيتها ولباقتها أن تحوله من الركود المطلق إلى الأمل الحلو المرتقب ، وأيقن أن الله أراد به خيراً فأرسل إليه ملاك الرحمة في كيان هذه الفتاة ...

ومال برأسه على كتفيها فى شبه إغفاء ، وغاب بخياله عن الوجود ...

وهدأت الفتاة راجية أن يعاوده البشر والأمل ، وراحت تتأمل وجهه الشاحب الحزين . ثم انتقلت ببصرها إلى صدره ، وهو يعلو وينخفض كأنه ضاق بأنفاسه

ولمحت طرف ورقة تبدو من وراء ثيابه فملكها الشيطان ، ومدت يدها فى حذر تسحب الورقة ...

أوراق صفراء تثبت عدد السنين الخوالى . قد تبلغ أربع سنوات ، ولقد اكتسح الزمن

الراحل لون الجد الزاهى ، ولم يبق من الحروف غير ظلها . ولما تأكدت من غفوته : راحت تحاول قراءة الرسالة فاذ بها :

يا طائرى

بودى لو أكتب بغير مداد

أستعين بيد الأزل المجهولة على تسجيل عواطف النورانية ... ولكن أين العين التى تتبين هذه الحروف الخفية ، وتدرك ما وراء نفسى الغامضة حتى أنت ؟ أيمكن أن تفهم مرماى ؟

إنى أشك . رغم ما بيننا من تفاهم وطيد ...

صرت من الأعماق يصرخ فى أعماق مجلجلا كالرعد : أريدك تفهمنى كما أنا

وحبى ...

قد تقول : كيف لا أفهمك وأنا أحبك ؟

وأنا أقول : قد تكون فهمتنى كما يفهم كل رجل امرأة .

وأنا أريد أن تفهم روحك روحى ، ويدرك قلبك معنى قلبى .

فاذا نظرت إليك دون كلام فهمت حكاية نفسى ونشيد روحى وأغانى قلبى فتفهم حقيقة حبى ، ذلك الحب الذى يشبه البخار الذى رفعته الحرارة من البحر الأجاج فانهمر ماء حلوا على قمم الجبال ، وجرى أنهارا فى الوديان ثم عاد إلى البحر حيث كان ...

ثم أستودع الله ما انفصل عنى لغير عودة — أستودع قلبى الطليق لأستقبل قلبى المقيد ، وأستودع أحلام العذراء لأستقبل مسئولية المرأة ، وأستودع كل القلوب الهائمة حوالى لأستقبل قلباً واحداً أعز من الحياة على .

تسألنى : هل أحبك ؟

وجوابى : أنا أعرف إنى محبة لله ، وأن ذاك الحب الجليل يتجسم فيك وحدك ، حتى أحسست أن روحى انسرحت من الكثافة الحاجبة فى عالم الحس واستشفت الحقيقة فى عالم الغيب المجهول غير المدرك أو الملموس . ألا ترى معى أن الحياة أقرب إلى الخلود منها إلى الفناء إذا لازم الحب عمرها الحافل بالأمانى الحسان .

ألا يحتمل أن يكون الخلود هو هذه الساعات الحبيبة المليئة بنشوة الحب الطهور ؟

لقد كونت الطبيعة الانسان ثمرة للحب ، فهو إذن بالمادة والروح من عناصر الحب ... خلق به ومنه وله .

فالروح الذى يلتهب وحده بكهرباء الحب يدرك بالغريزة عناصر وجوده ثم مستلزمات الوجود وفهم الحب ، والشعور بالحاجة إليه كمنعم للحياة هو الباعث على تنبه العاطفة إلى حد الاحتراق . إذن بلغت الآن إدراك الحقيقة وبدأت أفهم نظرية صحيحة لها أساسها العلمى .

الحب من عناصر الحياة إذا لم نجزم قطعاً بأنه ذات الحياة .

ولكل حياة مظهر للدلالة على وجودها ، كذلك الحب يدل على وجوده بتنبه العاطفة وفورتها ، يملأ الفؤاد كما تملأ الكهرباء الجو ... يكون بغير حصر حتى يحصر ، وبدون نتيجة عملية إيجابية حتى يركز فيتوجه للعمل الايجابي والانتاج .

فأنا قبلا كان حبى موزعا لأننى لم أصادف نقطة الارتكاز ... فلما وجدتها عدت لا أملك هبة قلبى ولم أقدمه طوعاً .. بل انتزع منى انتزاعاً .

وهأنذى أشعر أن العاطفة تساير عقلى جنباً إلى جنب من ذلك تعرف أن العقل لا يخالف القلب إلا إذا كان الحب وليد الهوس والجنون والكذب والنفاق ؛ أما إذا كان الحب وليد الايمان الأكيد والميل الصحيح والشعور الصادق فلا سبيل للعقل غير مشاركة القلب فى وجدانه بتفكيره .

فنحن نحب الله بقلوبنا ، ونفكر فيه بعقولنا ، وكذلك الحال إذا حدث التفاهم بين شخصين

والآن ليس فى مقدورى بعد الآن مخالفة قانون الجاذبية .

وجميع قوانين الطبيعة صحيحة خالدة مهما اختلفت المظاهر وتنوعت الظروف والأجواء

إذن لا تتعجل الظروف فلكل شىء حينه ، فالجنين يوضع عندا كتماله ، والثمرة تسقط عن الشجرة بعد تمام النضج

وحبى لن يواجهك إلا بعد أن تثبت أركانه.

الآن آمنت . الحب كالقدر أعمى

وطلب المثل الأعلى فى الحب أمنية من الأمانى والقدر يلعب دوره حتى فى العواطف ، فقد يتركز الحب فى غير ما يتمناه الانسان برغبته وبعقله ومصلحته فيخضع لسلطانه المستبد

أنا لا أرجو ولا أؤمل ، وليس لى هدف حسى ؛ إنما أعيش بالروح فى عالم الروح ، نشدتى روحية ومسراتى وآلامى باطنية منفصلة عن الحواس جميعها

والتخيل هو ارتقاء الفكر عن العالم المحسوس وعالم الخيال ، هو عالم الحقيقة لمن يرتقى عقله عن طباق العقل المحبوس ، فاذا تخيلت فلنفسى ، وإذا ناجيت فكأننى أناجى روحى لأن طيف أليفى صورة مماثلة لى ... أراها فىَّ وأرانى فيها ولا يمنع التخيل مانع مادى ، وليس لعالم الخيال حد ... كذلك لا تحول دون الروحانية الحوائل الوصفية . ولعل من أعجب العجب أن نتحاب قبل أن نتعارف كما يحدث دائماً بين الناس ، ولماذا ؟ لأن الكهرباء التى تضىء مصباحك الروحى هى التى تضىء مصباحى !

ولأن القوة المجهولة التى تحرك الخيال للتخيل هى التى حركت الناحيتين للعمل وللاتجاه المتماثل ، كما تحرك الكهرباء قطارات الترام على شتى الخطوط.

إذن ليس فى مقدورى مطلقاً أن أحاول مقاومة الطبيعة لأننى لا أملك القوة على مخالفة الناموس ، وأرى العاطفة تسيرها وحدة الوجود فى السبيل المرسوم لها من الأزل بقوة المحرك العام مصدر الحركة والسكون

لطالما حاولت أن أخفى هواى

وها هى ذى الطبيعة تغلبنى أخيراً وتقهرنى. كنت أتحصن دائماً بكبريائى ، وفاتنى أن الطبيعة أقوى من الكبرياء ، إذ الكبرياء تغذيها المادة وتهديها

أما العاطفة فتغذيها الغريزة أو ناموس الكون ثم تطلقها فى غير هدى

وأنا عند ما أصارحك بهواى أكون صادقة ، إذ ليست عاطفتى وثبة عن طيش ولا قفزة عن رعونة ولا وسيلة لتحقيق أمل

إنما هى يسميها الفكر المحدود مصادفة ، ويقرر العلم أنها لازمة الاستقرار فلها قيمتها المعنوية فى حياتى وحياتك « هلا »

لا تدرى الفتاة كيف قرأت الرسالة حتى النهاية. فقدت حواسها ولم تنبه إلا على صوت صرختها المدوية عند ما قرأت اسم « هلا »

يا لله ... خطها وأسلوبها واسمها ... وذاك البائس حبيبها الغادر. صرخت ..

فتنبه النائم ونظر إليها مشدوهاً فاذا بها ترتعش وبين أصابعها الأوراق الذابلة ...

قال الرجل فى اضطراب : ماذا بك ؟ فغمغمت: هو أنت ؟ ثم غابت عن الوجود

(المنصورة) جميلة العدوى